حافلة غزّة للمفاجآت

عائشة بلحاج

في وقتٍ كنا نظنّ فيه أنّنا بلغنا عصر نُضج الحضارات، صدمتنا حافلة المفاجآت. وما من وصف يليق بحرب الإبادة التي تشنّها اسرائيل على غزّة أكثر من أنّها حربُ مفاجآت من اللحظة الأولى. فمن كان يتوقّع «طوفان الأقصى»، والقدرات البطولية التي أظهرها الغزّيون. ومن كان يتوقّع أن تشنّ إسرائيل حربَ إبادةٍ علنيةٍ بلا حسيب. ومن كان يظنّ أن يدها ستطاول عُمقَ دولةٍ يُقال إنّها ندُّها الوحيد في المنطقة، والتي يظنّ الناس أنّها كفيلة بها، إذا هاجت «الهوائج».

حافلةُ المفاجآت، حملت أيضاً ثغرات غير متوقّعة في جدار المقاومة، فهي لم تقدم حماية كافية لقائدها السّياسي، رغم أنّها فاجأتنا بقدرتها العسكرية والتّكتيكية. هي التي تبذلُ إسرائيل جهوداً خرافية لاغتيال قيادي واحد فيها موجود في الأرض، في منطقة مكشوفة شبراً شبراً، وقليلاً ما تنجح. رغم أنّ الجزء الأكبر من التقصير في حماية إسماعيل هنيّة يقع على إيران. ولم نكد نتجاوز صدمة اغتيال إسماعيل هنيّة، والشعور الخفّي بالهزيمة والتشاؤم بما سيأتي مع تنامي العنجهية الإسرائيلية، حتّى فاجأتنا «حماس» باختيار يحيى السنوار. لتقول إنّ الهزيمة ليست خياراً، وإنّ اغتيال قائد سياسي لن يؤدي إلّا إلى اختيار قائد عسكري. لينقلب السّحر على الساحر. لكن حافلة المفاجآت صدمت إيران نفسها، لتثقب بالون الثقة الزائدة في أنّها قوّة إقليمية مهابة الجانب، وفي خطّ أحمرَ لن تتجاوزه إسرائيل، وأميركا المحرّك الحقيقي، والتي فاجأتنا أيضاً، رغم تظاهرها الصّفيق بالمفاجأة، بأنّها ترى الإبادة حلّاً وحيداً. لذا سمحت لإسرائيل باغتيال المفاوضات، لتُغرق الحرب في حفرة أعمق، أملاً في تحقيق انتصار مستحيل. لكنّ الأسوأ لا يقف عند شروخ الجدار الأمني الإيراني، لأنّه شمل خروج إسرائيل من مرحلة السعار الداخلي، والدخول في مطاردة خارجية رعناء، مثل طفل أفسده الدّلال الأميركي، فصار يركل القريب والبعيد. متفاخراً. فنتنياهو أعلن أنّ يد إسرائيل تَطاول كلّ مكان ترى فيه خطراً عليها. فاجأنا الإخوة أيضاً، فالنمور التي كنّا نظن أنّها حولنا، ورغم خضوعها، فلا بدّ من زمجرة أو أخرى بين الحين والآخر، لكنّنا كنّا متغطّين بالوهم، لأنّها محض قطط منزلية لا تجرؤ حتّى على التنديد.

أين ردّات الفعل التي تتغنى بها دول ومنظّمات تجاه أيّ فعل إسرائيلي يتجاوز الخط الأحمر؟ يبدو أن الخطّ الأحمر يعني أمن الأنظمة ودوامها، لا أمن بلادها. فيمكن لأيّ جنرال إسرائيلي أن يقترح قصفاً أو اغتيالاً، داخل حدود هذه الدولة أو تلك، ويتم الأمر في هدوء محيّر. من كان يظنّ أنّ دولاً من المنطقة العربية ستواصل احتضان العلاقة الدبلوماسية مع إسرائيل في قمّة وحشيتها، ولو من باب أضعف الإيمان؟ ولم تندّد باغتيال القائد السياسي لـ«حماس»، مع أنّه لو حدث العكس وقُتل نتنياهو الملطّخة يده بدماء الأطفال، لندّدوا، بلّ ولطموا في الجنازة. ورغم أن فوزُ دونالد ترامب لن يفاجئنا، لكنّه سيفاجئنا بما سيفعله، وإلى أيّ درجة سيقف فيها يداً بيد مع إسرائيل في سعيها إلى إهدار الدماء، واغتصاب المزيد من الأراضي والحقوق.

وإذا كان المتفائلون يأملون أن تُفضي المفاوضات إلى فرجٍ قريب، والواقعيون واثقون من أنّ المفاوضات مع كيان بُني بالدماء مُجرَّد تمثيلية تحمي بها نفاق الغرب، بينما تدكّ الأرض على الأبرياء. فآخر مفاجآت دفعتهم جميعاً إلى التخلّي عن الاعتقاد بأنّ هناك حدوداً لا يمكن تجاوزها، في عالم كنّا نظنّ أنّه مُدجّج بالقواعد والمؤسّسات الدولية. يبدو أنّنا نعيش مرحلةَ انهيار المنظومة الأممية، التي قريباً لن تكون أكثر جدوى من جامعة الدول العربية؛ كثيرٌ من التنديد ولا شيء في الأرض. مثل أجراس الريح على أبواب المنازل، ما تفعله كلّه هو أن تهتز إذا مرّ بها أحدٌ، لكن بلا تأثير على الإطلاق، حتّى أنّ صوتها أضعف من أن يكون قادراً على التحذير.

فوق ذلك كلّه، خطّة إسرائيل لتحويل الحرب إلى الخارج، نحو دول معينة، لتخدير العالم بحقنة مُحاربة الإرهاب، قد تحمل مفاجآت أخرى. فـ«بوعو» الإرهاب علاج سحري لأصغر الأزمات ولأفدحها. و«بوعو» هو الوحش الخيالي الذي تُخيف به الأمّهات أطفالهن في المغرب إذا لم يسمعوا كلامهن.

إيمان خليف... ضدّ «كتالوغ» الأنوثة

مها حسن

نشرت الملاكمة الأيرلندية إيمي برودهورتس فيديو بكاء إيمان خليف بعد فوزها على منافستها المجرية لوكا هاموري، في منازلة ربع النهائي ضمن منافسات الملاكمة في أولمبياد باريس، وساندتها بقولها: «لا أستطيع أن أتخيّل ما تمرُّ به البطلة إيمان خليف».. إيمان التي تعرّضت للتنمر والعنصرية بسبب تميّزها وقوتها ونجاحها.

منذ طفولتها، عُرفت إيمان بالطيبة والكفاح. حاربت لتنال حقّها وتثبت جدارتها، إذ عاشت في بيئة محافظة ترى أنّ الملاكمة محصورةٌ بالرجال. كانت الشابّة الصغيرة تلعب كرة القدم، وكان الأولاد يغارون منها. ورغم فقر العائلة، عملت في بيع الخبز والحديد والبلاستيك لادّخار المال والتدرُّب على الملاكمة. هذه السيرة السريعة لإيمان هي الوجه المعاكس لـ«ساندريلا»، الفتاة الفقيرة التي تتحقَّق العدالة في حياتها، وتنتصر على ظلم زوجة أبيها بلفت انتباه الأمير، ثمّ بالزواج منه ودخول القصر.

حكاية إيمان، إذاً، هي تحطيم للصورة النمطية للمرأة، التي تتمرّكز قضيتها الرئيسية في أنّها «باربي»، توقع الرجال في غرامها، وتدخل في عالم «الحرملك» لتمتلكه، وتُملّكه نفسها. هذا النموذج الانقلابي لصورة المرأة لا يُرضي الفكر المحافظ بشقّيه الغربي والعربي؛ الغربي الأبيض الخالي من الشوائب، الذي يفرض على العالم بأسره المواصفات الجمالية للنساء عبر السينما والإعلام ونشرات الأخبار؛ والعربي الذي يخضع للمزاج نفسه، مضيفاً إلى مفهوم الأنوثة الضعف، والرقّة، والخضوع، والصوت المنخفض، والتبعية، والخجل. ضمن هذه الشروط الثابتة في «كتالوغ» الأنوثة العالمي، بفرعيه الغربي والشرقي، فإنّ الحرس الذكوري، الراعي مصالحَ الرجال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، جاهز على الفور لشنّ حملات الاغتيال المعنوي ضدّ كلّ امرأة تخالف المعايير.

خارج الإطار القانوني وقواعد الرياضة التي تضعها هيئات ومؤسّسات مُتّفق على شرعيتها، بل وعلى نزاهتها، يأتي الكلام كلّه المُتعلّق بجنس اللاعبة الدولية إيمان خلف من باب الهرطقة الاجتماعية، والتفكير الذكوري التاريخي، الذي تمارسه النساء كما الرجال، بفعل الهيمنة المُستمرَّة من عقول ذكورية، تضع تعريفاتها للأشياء والأفعال والأفكار والأشخاص. كامرأة، أرى في إيمان خلف نموذجاً جمالياً مختلفاً، خارج «كتالوغ» الأنوثة الذكوري، الذي يضعنا نحن النساء في بوابة: كوني جميلة وفق هذه المواصفات لتحظي بإعجابنا. كثيرات منا نحن النساء، حتّى من النُخَب، تحوّلنا خاضعاتٍ خانعاتٍ لمقاييس السوق الجمالية، وصار لدينا هَوَسٌ جديدٌ غير هَوَسِ «المكياج» والملابس و«الإكسسوارات»، التي تستمتع كاتبة هذ السطور بها جمالياً، وفق ذائقتها الخاصّة، ليتحوّل الهَوَسُ: هل أُجري عمليةً شدٍّ لوجهي؟ هل أنفي كبير وعليّ تصغيره؟ هل أقوم بعملية شفط دهون لبطني؟ هل أقصّ جفني المليء بالتجاعيد؟ فنانات جميلات كنَّ حديث الجهور في فترة شبابهن، وكانت صورهن تحتلّ جدران المراهقين ليكنَّ نماذجَ الحبيبات المحلوم بهن، أو جدرانَ المراهقات لتقليدهن، تُنشر صورهن من حين لآخر، من دون «مكياج»، وقد تغيّرت وجوههن، وكبرن، ليُتَنَمَّر عليهن ويُسخَرُ من « بشاعتهن». في الحالتَين، في حالة إيمان خلف، الأنثى القوية ذات العضلات واللكمات المدروسة، أو الممثّلة الحلوة أيّام زمان، التي صارت « قبيحةً» الآن، فإنّ المرجعية لتقييم الأنوثة والجمال واحدة؛ الرجال الذكوريون الذين يضعون مقاييس الجمال بالمسطرة، وبالسنتمتر، التي إن زاحت عنه إحدانا، تُطرَد على الفور من التصنيف الشرس لوضع المرأة في خانة النساء.

بلوغ البطلة الجزائرية إيمان خليف الدور النهائي في دورة الألعاب الأولمبية 2024 في باريس هو انتصار لفكر رياضي جديد، وتحطيم لغطرسة العالم الأبيض الذي يضع مقاييس الجمال، وانتصارٌ لتعاريف النساء حول الجمال، والخروج عن الـ«كتالوغ» لفرض مفاهيم جمالية جديدة تهزّ الثوابت الخائفة، وتُخرج النساء من عباءة الطاعة والتبعية. إيمان خليف العربية هي بدايات إزاحة وجه باربي عن أذهان البنات في العالم، لخلق وجوه أخرى للجمال، وتغيير أحلام النساء.

(روائية سورية في باريس)

إيران وحزب الله والخطاب الشعبوي العربي

أسامة أبو ارشيد

هي حقيقةٌ، شئنا أم أبينا، أحببنا أم كرهنا، اعترفنا بذلك أم كابرنا؛ يقبع النظام الرسمي العربي، ومعه أمّة العرب، استتباعاً، في الهامش، لا أحدَ يهتمّ لرأينا، ولا أحدَ يَحسِب لموقفنا حساباً. لقد نجح النظام الرسمي العربي في شلِّ ذاته إرادياً، وإجهاض فاعلية شعوبه. المؤسف أنّ هذا الواقع الآسن أدّى إلى تبلور عقليةٍ تآمريةٍ، حتّى بين بعض النُخَب العربية، تُقارِب مواقفَ دولٍ وتيّاراتٍ أخرى، لنا خصومات معها، كإيران وحزب الله، ولكنّها أكثر ديناميكية منّا وأكثر تأثيراً... تقاربها على أنّها تتحرّك ضمن أدوار مرسومة لها مسبقاً، وأطرٍ مُتَّفق عليها مع خصومٍ آخرين، وتحديداً، الولايات المتّحدة وإسرائيل. وهكذا، يصبح فشلنا مُعلَّقاً على مشجب المؤامرات الخارجية علينا فحسب، لا جرّاء تقصيرنا وغياب مشروعنا وتوهان بوصلتنا. أبعد من ذلك، تورّطت بعض النُخَب والمُؤثّرين العرب في إشاعة «تحاليل سياسية» بعيدة عن المنطق والحقيقة، ولكنّها تضرب على وَتَر التحيّز والعواطف والشعبوية، وهم بذلك يزيدون الواقع العربي كآبةً فوقَ كآبته وعجزاً فوقَ عجزه. إذ ما دامت فاعلية الآخر، الذي نبغض، هي حصيلةُ مؤامرةٍ، وما دام ارتكاسنا نتيجةَ مؤامرةٍ فحسب، إذن، ليس في اليد حيلة، ويمكن لنا أن نُخلي ذممَنا من المسؤولية ونحن مطمئنو البال ومرتاحو الضمير (!).

يجد التأطير السابق تصديقاً له من التصعيد الراهن في المنطقة، بين إيران وحزب الله من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى، على خلفية تمكن الأخيرة من تنفيذ عمليتي اغتيال ضدّ هدفَين كبيرَين. الاغتيال الأول، وقع في حقّ القيادي العسكري الرفيع في حزب الله، فؤاد شكر، في غارة جوّية على مبنى في حارة حريك بالضاحية الجنوبية للعاصمة اللبنانية بيروت (30 يوليو/ تمّوز الماضي). ولم يكد يمضي يوم واحد حتّى كانت إسرائيل تغتال رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، إسماعيل هنيّة، في قلب طهران، وفي مبنى شديد الحراسة يخضع لتأمين الحرس الثوري الإيراني. عمليتان بهذا الحجم، وضدّ هدفَين من هذا المستوى، يثيران أسئلة كثيرة، ليس أقلّها، حقيقة وجود اختراقات استخباراتية وأمنية كبيرة في كلّ من إيران ولبنان. لكن، بعض من يُصنَّفون في النُخَب العربية رأوا الأمر من زاوية مختلفة. من ناحية، عدّوا تهديدات حزب الله وإيران بالردّ على إسرائيل «مسرحيةً» فحسب. أمّا الأكثر إثارة، أنّ هناك من لم يتردَّد في اتّهام طهران باستدراج هنيّة، ضمن اتفاق مع إسرائيل، للتخلّص منه (!) وقطعاً، لن يعدم هذا الهذيان مصفّقين ومُؤيّدين بين من يفترض أنّهم دَهْماء، إذ يدرك الشعبويون أنّ الدَهْماء، الباحثين عن تفسيرات للدرك الأسفل، الذي يقبع فيه الحال العربي، هم قوّتهم ووقودهم.

ثمَّة فارق بين أن يقال إنّ إيران وحزب الله ليسا بالقوّة التي يحاولان تصوير نفسيهما فيها وأنّهما متواطئان ومتآمران مع إسرائيل، أو أنّهما عاجزان تماماً أمامها. لا هما متواطئان ولا متآمران معها، ولا هما عاجزان تماماً أمامها. لكنّ الحقائق لا تكذب، إسرائيل أقوى منهما، ليس بإمكاناتها الذاتية، فحسب، وإنّما بفضل الدعم الأميركي المطلق لها، أولاً وقبل كلّ شيء، ثمّ دعم دول غربية أخرى. هذا لا ينفي وجودَ عواملَ أخرى هنا. من ذلك تورّط إيران، تحديداً، وحزب الله استتباعاً، أداةً إيرانية في المنطقة، في جبهات استنزاف

> فارق بين أن يقال إنّ إيران وحزب الله ليسا بالقوّة التي يحاولان تصوير نفسيهما فيها وأنّهما متواطئان ومتآمران مع إسرائيل

أخرى افتعلاها في الإقليم أو أنّهما تورّطا فيها، سواء بناء على حسابات طائفية أم استراتيجية، كما في العراق وسورية واليمن. أيضاً، لا يمكن أن نغفل كثيراً من المواقف الرسمية العربية، التي لم تعد تحرص على إخفاء حقيقة تواطؤها وتعاونها مع إسرائيل والولايات المتّحدة ضدّ مكوّنات من الهُويّة الجمعيَّة (الذات) في المنطقة. لكن، البعض بيننا يختار التعامي والقفز عن الوقائع والحقائق، أو تطويعها، وكأنّ أصناف الناس كلّهم دَهْماء، تبحث عن تبرئة النفس من المسؤولية الذاتية.

إيران وحزب الله يبحثان عن ردٍّ يوازن ما بين معادلات الردع وحسابات عدم الانجرار إلى حربٍ إقليمية مُدمِّرة، لن تكون إسرائيل عدوَّهم الأساسي فيها، وإنّما الولايات المتّحدة، ومن ورائها تحالف غربي - عربي. نعم، ثمَّة محور عربي لا يتردَّد ولا يخجل في أن يعلن أنّه جزءٌ من التحالف مع إسرائيل ضدّ إيران وأدواتها في المنطقة، وحريٌّ بنا أن نداري أوجهنا عاراً، من مساهمة دول عربية في التصدّي للهجوم الإيراني الانتقامي ضدّ إسرائيل في إبريل/ نيسان الماضي. أم هل يا ترانا نسينا كيف أنّ دولاً عربية سمحت لطائرات التحالف الغربي، وحتّى الطائرات الإسرائيلية أن تستبيح سيادةَ أجوائها لإسقاط المُسيَّرات والصواريخ الإيرانية قبل أن تصل إلى إسرائيل؟... بعضنا اختار حينها أن يُعَيِّر إيران بمحدودية الردّ والتمهيد العلني له، وهذا صحيح، إذ إنّها أرادات تجنّب استفزاز حرب أميركية ضدّها، ولكنهم تغاضوا عن الفضيحة العربية.

باختصار، يمكن أن نبغض إيران وحزب الله بسبب جرائمهما ضدّنا عرباً، كما يحقّ لنا أن نسائل حجم ومدى ردّيهما، لكنّ هذا لا يعني أنهما مُنخرطان في «مسرحيةٍ» و«تمثيليةٍ»، بل هما يوازنان بين المكاسب والخسائر. إيران وحزب الله يُفكّران بمصالحهما أولاً، فبماذا نُفكِّر نحن العرب؟ أيضاً، يمكن أن نكره طرفَين ونخاصمهما، ويكونا في الوقت ذاته كارهين لبعضهما بعضاً، ومتخاصمَين كذلك. التحليل السياسي لا يخضع لحُبّ وكراهية، ولا إلى تحيزات ورغبات. الأكثر أهمّية أنّ غضبنا من إيران وحزب الله لا ينفي أنّ تناقضنا المركزي يبقى مع إسرائيل، وأنّ الدماء التي تسيل بغزارة اليوم هي فلسطينيةٌ بأيديها. السؤال الأكثر أهمّية من ذلك كلّه، أين نحن العرب من سحقنا على أيدي أطرافٍ عدّة؟ أيشرّف بعضاً أن يقول نكون مع إسرائيل ضدّ إيران وحزب الله؟... ذلك ليس شرفاً، بل هو قاعُ الانحطاط، كما أنّ تبرير الدماء التي تسيل في سورية بأيدي إيران وأدواتها هو قاعٌ آخر للانحطاط.

(كاتب فلسطيني في واشنطن)

كاريكاتير

عماد حجاج

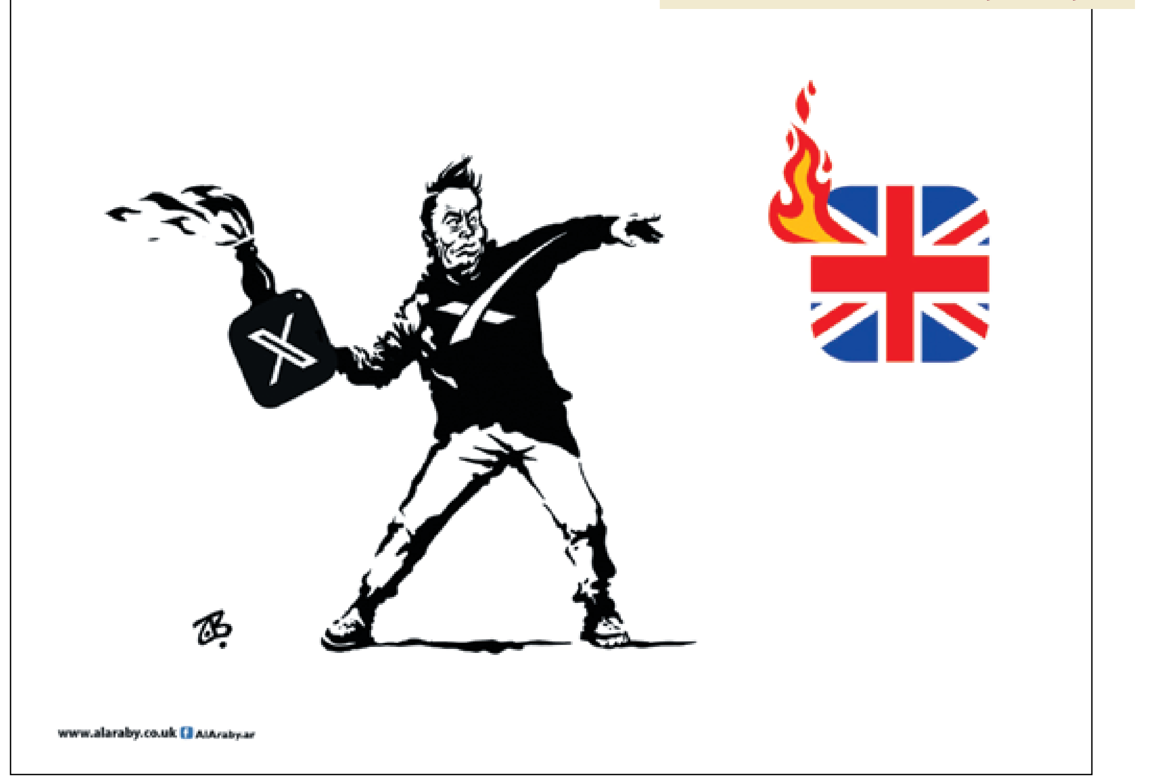

غزّة في عهد السنوار...

غازي دحمان

باختيار حركة حماس يحيى السنوار رئيساً لمكتبها السياسي، تفقد عملية اغتيال إسرائيل الرئيس السابق للحركة، إسماعيل هنيّة، أيَّ قيمةٍ عسكريةٍ أو معنويةٍ، بل إنّها تندرج في إطار العبث أو استعراض فائض القوّة، فالرجل كان مفاوضاً وسياسياً ولا فاعلية ميدانية له، والمخابرات الإسرائيلية المسؤولة عن تقييم الوضع وتقديم المشورة للمستويَين، العسكري والسياسي، كانت تعرف هذه الحقيقة. الحقيقة الأكثر أهمّية، أنّ السنوار، بصفته القائد في غزّة، هو من أخرج مشهد «طوفان الأقصى» في 7 أكتوبر (2023)، وكتب السيناريو الخاص به، عبر سنوات طويلة من العمل وهندسة الأجنحة الأمنية والعسكرية للحركة، لتكون في هذه الشاكلة. وحسب مصادر الحركة، بدأ السنوار بعملية الهندسة داخل الحركة منذ انتخابه عام 2012 عضواً في المكتب السياسي للحركة، وتولّيه مسؤوليةَ الجناح العسكري؛ كتائب عزّ الدين القسّام، وشغل مهمّة التنسيق بين المكتب السياسي للحركة وقيادة الكتائب. واعتباراً من حرب غزّة 2014، التي سمَّتها إسرائيل «الجرف الصامد»، بدأ ظلّ السنوار يظهرُ بوضوحٍ في إعادة تشكيل الجناح العسكري للحركة، فقد أجرى بعد انتهاء الحرب تحقيقات وعمليات تقييم شاملة لأداء القيادات الميدانية، وهو ما نتجت منه إقالة قياداتٍ بارزةٍ، وتولّي قياداتٍ شابّةٍ جديدةٍ أقرب إلى فِكْرِ السنوار وتصوّراته العسكرية. والسنوار، الرجل المهووس بالأمن، بسبب نشأته الأمنية، وهو مُؤسّس أول جهاز أمني في الحركة (مجد)، الذي كانت مهمّته الأساسية مطاردةَ العملاءِ والجواسيس، شأن رجال الأمن كلّهم في أيّ سلطة، لا يثق إلّا بمن يختبرهم ويفحصهم، وكانت آخر عشر سنوات، وحتّى قبل اختياره رئيساً للمكتب السياسي للحركة في غزّة، كافيةً للسيطرة على أكثر مفاصل الحركة العسكرية والأمنية أهمّيةً، وإدراج تصوّراته ورؤاه للحرب مع إسرائيل في صلب استراتيجيتها وعقيدتها.

كان ما جرى في 7 أكتوبر تطبيقاً لرؤية السنوار الاستراتيجية للصراع مع إسرائيل، فهو يرى أنّ نمط العمل القديم القائم على عمليات صغرى لا يُؤدّي إلى نتائجَ مهمّة للقضية الفلسطينية، ولن تُرغِم إسرائيل على تنفيذ القرارات الدولية، وأنّ ما يُحقّق ذلك عملية كُبرى تجبر إسرائيل على الرضوخ، أو تعزلها عن المجتمع الدولي، وتضعف موقفها العالمي، ما يعني أنّ السنوار كان لديه تقدير للمشهد بعد عملية الطوفان، فالمعروف عن الرجل أنّه واقعيّ وليس حالماً. في الأحوال كلّها، إسرائيل مسؤولة بدرجة أساسية عن المعادلات التي تشكّلت في غزّة، وفلسطين كلّها، ولا يمكن إلقاء اللوم على شخص أو كيان في الطرف المُقابل، فقد كان من المنطقي أن يُقابل النُخْبَة المتطرفة التي وصلت إلى الحكم في إسرائيل، التي تعمّدت عبر سياسات مقصودة وممنهجة إذلال الفلسطينيين، وتهديم أساسات قضيتهم، تشدُّداً في الطرف الآخر، بات مطلوباً فلسطينياً وعربياً وإسلامياً لحماية ما تبقّى من فلسطين، شعباً ومُقدَّساتٍ ورمزيةً، في مواجهة دعوات إسرائيليةٍ صريحةٍ بالتسريع في إعلان يهودية فلسطين، وطرد العرب من الضفّة، وهدم المسجد الأقصى.

والحال أنّ اختيار السنوار ستكون له انعكاسات واضحة في إدارة المفاوضات، وسيكون للميدان تأثير كبير في تحديد أطر أيّ صفقةٍ محتملةٍ في المستقبل، ورغم أنّ تأثيرات السنوار في هذا الإطار كانت موجودة، إلّا أنّها، وبعد دمجه السيطرة على السياسة والعسكر، وتفرُّده في القيادة، سيغيّر بدرجةٍ كبيرةٍ المعادلةَ السابقةَ، ويُؤثّر في خيارات «حماس»، بحيث يصبح خيارُ استمرار المقاومة، حتّى رضوخ إسرائيل وسقوط بنيامين نتنياهو، ممكناً، رغم صعوبة تحقيق هذا الاحتمال بالنظر لاختلاف موازين القوى، إلّا أنّ رهانات السنوار تنطوي على شيء من المنطق في ظلّ الانقسام الحاصل في النخبة الإسرائيلية، وتعب المجتمع الإسرائيلي، ومساعي واشنطن لإيجاد مخرجٍ للحرب في غزّة. وقد

> سيكون للميدان في غزّة تأثير كبير في تحديد أطر أيّ صفقةٍ محتملةٍ في المستقبل

تكون لاختيار السنوار رئيساً للحركة تداعيات على «حماس»، التي تحتاج إلى التعامل بمرونةٍ وبراغماتيةٍ إزاء تغيّر البيئة الاستراتيجية للصراع، وحاجة الحركة لدعم سياسي إقليمي وتقبّل دولي. وبتوضيح أكثر؛ إلى قبول أميركي، إذ رغم عزم المقاومة وإصرارها على تحقيق أهدافها تظلّ بحاجة إلى وجوهٍ دبلوماسيةٍ، لديها القدرةُ على المناورة وهامشٌ من الحرّية في التحرّك، في حين إنّ السنوار، ومن سلوكه وسياساته، يبدو أنه يسير في طريق تهميش الفاعلين الآخرين كلّهم في الحركة، وحصر أدوارهم في إطار القوالب التي يُحدِّدها، وليس بعيداً أن يُجري في مراحلَ لاحقةٍ تغييرَ مُعظم الوجوه المعروفة في «حماس»، وإن لم يكن عنوةً، وإنّما عبر تهميشها وتعطيل مفاعيلها.

يقودنا ذلك إلى السؤال عن حجم التأثيرات الإيرانية في مسار الحركة الراهن والمستقبلي، إذ يبدو أنّ «حماس»، وبعد اختيار السنوار، باتت أكثر التصاقاً بمحور إيران، عبر انتصار التيّار الذي يدعو إلى تقوية العلاقة معها إلى أبعد الحدود، على اعتبار أنّها الطرفُ الوحيدُ الذي يدعم «حماس» في المستويات كلّها، وهذه إشكالية ستترتّب عليها تداعيات مستقبلية على الحركةِ والقضيةِ الفلسطينية برمّتها.

(كاتب فلسطيني في فرنسا)

حرب المجاعة في الشرق الأوسط

يقظان التقي

يُحذّر أحدث تقرير عالمي للتصنيف المتكامل من انعدام الأمن الغذائي الحاد، الذي يُعرّض الأطفال دون سنّ الخامسة في قطاع غزّة (355 ألف طفل) لخطر الإصابة بسوء التغذية والوفاة. ذكر التقرير أنّ أسرةً واحدةً في الأقلّ، من كلّ أربع أُسَر في القطاع، تواجه مستوياتٍ كارثيةً من انعدام الأمن الغذائي الحاد، وهو أعلى مستوىً من الإنذار، إذ يعاني نحو 2,1 مليون شخص (96% من سكّان غزّة) من مستويات طارئة/ مرتفعة من الجوع وفقدان الرعاية الصحّية (أكثر من ثلثي المستشفيات لم تعد تعمل بسبب نقص الوقود والمياه والإمدات الطبية الحيوية). هذا، في وقت يقترح وزير المالية الإسرائيلي بتسلئيل سموتريتش استمرار الوضع والحرب و«تجويع مليوني فلسطيني في غزّة حتّى الافراج عن الرهائن الإسرائيليين». يموت في السودان طفل كلّ ساعتين بسبب سوء التغذية، ويعاني 24 مليون طفل تضرّراً، في حين يعاني 730 ألف طفل من سوء التغذية الحاد. والمجاعة تُهدّد حالياً نصف سكّان البلاد، وتتفاقم الأزمة في أجزاء من دارفور، حيث يعاني السكّان في مخيّمات النزوح من نقص حادٍّ في الغذاء والخدمات الأساسية، بسبب النزاع المحلّي المستمرّ بين جنرالات الحرب، والمدفوع بمصالح اقتصادية وسياسية. ليس بعيداً عن مخاطر المجاعة في البلد المجاور، تشاد، هناك نحو 120 ألفاً يعانون من سوء التغذية. ولا يجرى الحديث في مصر عن أشكال من سوء التغذية، وأرقام وصلت حتّى ملايين الأطفال، يعانون من الهزال الشديد مع توقّف النمو. وتُبيّن المسوحات في لبنان أنّ 30% من الأطفال ينامون جَوعى لعدم حصولهم على عدد كافٍ من وجبات الطعام. 79% من الأُسَر، مع الأزمة الاقتصادية منذ 2019، لا تملك ما يكفي من مال لشراء الغذاء، وترتفع هذه النسب بين الأُسَر السورية النازحة. وتعمل منظّمة الأمم المتّحدة للطفولة (يونيسف) في اليمن لتأمين العلاجات لنحو 400 ألف طفل يعانون أيضاً. وفي الصورة 17 مليون شخص على حافّة المجاعة في اليمن، في حين ترك النزاع السوري الذي دخل عامه الـ13، مع الزلزال الأخير، أثره في ملايين الأطفال، وخطراً متزايداً من الإصابة بسوء التغذية، لا سيّما في الشمال الغربي من سورية.

تعاني حالياً العديد من مناطق النزاعات من مستويات مختلفة من سوء التغذية والمجاعة، ووفقاً لتقرير 2024، هناك حوالي 282 مليون شخص في 59 دولة يعانون من الجوع الحاد ومن الفساد داخل الدول، الذي يزيد من تعقيد الوضع ويحول دون استخدام الموارد بفعّالية لمساعدة المحتاجين. الأطفال والنساء هم الأكثر تضرّراً، إذ يوجد أكثر من 36 مليون شخص يعانون من سوء التغذية الحادّ في 32 دولةً بسبب النزاعات والكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية ومستويات الدَّين العالية، التي تُؤثّر في رفاهية الأطفال، وتشمل نهجاً شاملاً لتنميتهم الجسدية والعقلية والروحية والاجتماعية، وكذلك رضاهم العام. ويتضمّن ذلك ضمان أن يحصل الأطفال على الغذاء الصحّي، والمأوى، والرعاية الصحّية، والتطور العاطفي والنفسي، وفرص التعلّم والتطور الإدراكي، وتشجيع الشعور العام بالاتجاه نحو القيم الإنسانية. هذا يعني أنّ أدمغة الأطفال من المُحتمل أن تعاني من الانكماش (دراسة عن صلة الأمعاء بالدماغ والجهاز العصبي لجان جاك هوبلين)، فيعاني نصف أطفال العالم من نقص المُغذّيات الدقيقة، وهو ما يعيق نمو الدماغ، وما يمكن أن يُؤدّي إلى نقص التحفيز وخسارة ما يصل إلى 15 نقطة من مُعدّلات الذكاء، وهذا له عواقب وخيمة تُؤدّي وفق دراسات إلى انخفاض الدخل بنسبة 25%، ويحدث الضرر في الطاقة الذهنية في أول 1000 يوم من الجوع. فالذكاء «هو الرياح الخلفية في الحياة» (ستيفن بينكر)، يساعد الناس على التكيّف مع التحدّيات الجديدة أو الثبات المُنقذ، وبإمكانيات متواضعة تدفعها إلى الأمام.

لا يستطيع الناس أن يحتموا من الحرب والمغامرة بالخروج إلى الزراعة أو الحصاد (أوكرانيا)، وبعض الحكومات تلجأ إلى تجويع المناطق المضطربة لإجبارها على الاستسلام، وهو ما تفعله إسرائيل في غزّة. تتراكم في أطراف القطاع (ولا تزال) آلاف الأطنان من المواد الغذائية والأدوية في انتظار الدخول، وصلت إلى الجانب المصري من الحدود مع غزّة، وتمتلئ المستودعات بالأدوية والأغذية والمستلزمات الطبّية، وتقصف إسرائيل الشاحنات المحمَّلة في جوانب الطرق. مع ذلك، كلُّ هذه الأشياء التي تقدّر قيمتها بملايين الدولارات تنتظر عبثاً منذ الأول من شهر مايو/أيّار، عندما شنّت إسرائيل هجومها على رفح، بشكل يناقض تماماً آخر تصريحات رئيس الوزراء بنيامن نتنياهو في الكونغرس عن مرور المساعدات وحركة العبور. والنتيجة؛ أطفال ونساء يموتون ولا تستطيع المُنظّمات الإنسانية الوصول إليهم. ليس معبر رفح وحده، الرصيف

يموت في السودان طفل كل ساعتين بسبب سوء التغذية، أم درمان، يونيو 2024 (Getty)

> تعاني مناطق النزاعات من مستويات مختلفة من سوء التغذية، وهناك حوالي 282 مليون شخص في 59 دولة يعانون من الجوع الحاد

البحري الذي بنته أمريكا بكلفة هائلة أُغلق نهائياً، في وقت أعلنت إسرائيل أكثر من منطقة عسكرية مغلقة، وأوقفت عمليات إسقاط المساعدات من الجو. تخوض وكالات الأمم المتحدة حروباً للنفاذ إلى القطاع، وتجادل حول القيود، وما تتسبب به من إعاقات. فيما تحرّض دولة الاحتلال جماعات المستوطنين على القيام بأعمال الشغب، وسرقة المواد، واحتجاز قوافل المساعدات، لمنع وصولها إلى المدنيين. يرفض عمّال الإغاثة في الأمم المتّحدة التنقلّ بمركبات مدرَّعة، سقط منهم إلى الآن 197، والجدار الأمني الذي أقامته مصر يجعل المعبر غير قابل للاختراق تقريباً، ولا يستطيع الناس شراء ما يأتي من الطعام مع الانخفاض الحاد في تقديم المساعدات. وتهدف إسرائيل إلى الضغط على «حماس» للموافقة على شروط وقف إطلاق النار. هذا عدا التهديد والقتل وسقوط الآلاف من الأطفال والنساء، والجروح غير المُضمَّدة، وغير المُعالجة في الأرض.

وجدت دراسة أجريت على 72 دولة أنّ متوسّط مُعدَّل الذكاء ارتفع بمقدار 22 نقطة ما بين العامين 1948 و2020. لقد استغرق تطوير الدماغ البشري ملايين السنين، كيف يمكن أن يتحسن بهذه السرعة؟... الجواب أنّ الناس يحصلون على تغذية أفضل وخاصّة الأطفال منهم، ما يمكّنهم من مواجهة التحدّيات المعرفية أكثر من الجيل الحالي. ستكون نتيجة التجويع مخيفة خاصّة في الدول التي تحرّرت من الاستعمار والاحتلال والتبعية الاقتصادية، مع أنّه من السهل تجنّبها. ويُقدّر البنك الدولي أنّ مكافحة سوء التغذية على نطاق واسع سيكلّف 12 مليار دولار فقط سنوياً. هذا يزيد قليلاً على ثلث ما تهدره أمريكا في الإعانات الزراعية. ما يحتاجه الأطفال، حتّى خلال الحروب والأزمات، بعض التركيبات في الأطعمة الأساسية، التي تحتوي موادّ الحديد والزنك والفولك (معظم النساء في الأحياء الفقيرة في بنغلادش يعانين من التهاب الأمعاء بسبب امتصاص المواد الغذائية، ويعمل الباحثون في أفريقيا لعلاج فقر الدم)، وإضافة اليود إلى الملح، أو استخدام الأرز الذهبي، أو إيصال مبالغ صغيرة إلى الأُسَر النازحة أو الفقيرة التي لديها أطفالٌ رضّعٌ أو أُمّهاتٍ حواملَ، أفضل من توزيع الأطعمة وكلفة التوزيع، وعلى الأقلّ يمكن مراقبتها.

(كاتب لبناني)

بلال الحسن الذي لا يُنسى

معن البياري

لمّا تستعرض سيرة بلال الحسن الذي تُوفّي أمس في باريس عن 85 عاماً، تلتقط فيها حسْماً أجراه لصالح الصحافي المهني وصاحب الرأي في شخصه، عندما استشعرَ أن ثمّة تنازعاً ما بين تطلّعه إلى أن يكون في هذه الصفة وصفته فاعلاً سياسياً مشتغلاً في العمل السياسي الفلسطيني، التنظيمي منه خصوصاً، بعد أن وجد، في أواخر عشرينيّاته ومطالع ثلاثينيّاته، أن مغادرته الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وكان عضواً في مكتبها السياسي مدّة قصيرة، بعد أن اختارها في الانشقاق عن الجبهة الشعبية (1969)، وكذا تركُه عضوية اللجنة التنفيذية لمنظّمة التحرير، فعلا ضرورياً يتّسق مع عودته إلى مزاولة الصحافة التي يريد، الصحافة التي في وُسعه أن يضيف ويُجدّد ويبدع فيها، وهو الذي كان قد زاولها في منبرٍ حزبي، مجلة الحرية الأسبوعية التي كانت تُصدرها في بيروت حركة القوميين العربٍ، قبل أن ينتقل إلى صحيفة المحرّر. وقد برز اسمُه، في تلك الأثناء، واحداً من الكفاءات الشابّة الواعدة في صحافة الستينيات العربية، البيروتيّة خصوصاً، مع رفاقه وأصدقائه الذين لمعوا لاحقاً، ومنهم طلال سلمان وغسّان كنفاني. وجاء لافتاً أنه كان نائب رئيس تحرير صحيفة السفير البيروتية، في بواكيرها وعند صدورها (1974)، وهو اللاجئ الثلاثيني الفلسطيني (مواليد حيفا)، وقد زاولت هذه الصحيفة دورا لا يُنسى، حتى توقفها (ديسمبر/ كانون الأول 2016)، وزاوجت بين إيقاعها الصحافي الرفيع وأنفاسها العروبية المنفتحة.

لا ينتسب صاحب هذه الكلمات إلى الجيل الذي عايش المراحل الأولى من مهنيّة بلال الحسن الإعلامية، غير أنه لا ينسى أبدا التجربة الأكثر تميّزا في الصحافة العربية المهاجرة، مجلة اليوم السابع، والتي صدرت في باريس في أكتوبر/ تشرين الأول 1983 وتوقفت في مطالع 1991. ولا تزيّد في القول إن جيلنا مدينٌ لهذه المجلة التي ترأس تحريرَها الفقيد الكبير، لما توفّر فيها من حرفيةٍ عالية، وحس نقديٍّ ملحوظ، ومتابعاتٍ وإضاءات متنوّعة في السياسة والثقافة والفنون، اتصفت برقي اللغة وأناقة العرض، فضلاً عن جماليات إخراجها وخطوطها (بأداء زميلنا إميل منعم ولمساته). ولئن يتذكّر المتابع من بين عدّة أسبوعياتٍ صدرت في باريس ولندن تميّز أولى أعداد «الوطن العربي»، في نهايات السبعينيات، قبل أن تتراجع إلى مستوىً مؤسف وبالغ الرثاثة، فإنه ليس منسيّاً أن «اليوم السابع»، بالذي كنّا نقرأه فيها لبلال الحسن ورفيقه مدير التحرير جوزف سماحة ولأسماء لبنانية وفلسطينية ومغاربية (توفّي أخيراً منهم الناقد السينمائي التونسي خميس خيّاطي)، حافظت، حتى قرار ياسر عرفات وقفها (وهو الذي وفّر تمويلها) في لحظة عربية حسّاسة (بعد غزو الكويت وقبل حرب تحريرها)، على سويّتها وأناقتها. لم يغادر بلال الحسن السياسة (أظنّه بقي عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني)، فقد زاولها من موقعه كاتباً ومعلقاً وصاحب رأي في صحفٍ ودورياتٍ تعدّدت مساهماته فيها، بعد تجربة «اليوم السابع»، الاستثنائية، فقرأنا له ما قرأنا في انتقاد الحال الفلسطيني، سيّما بعد اتفاق أوسلو الذي عارضه. وفي كتبٍ ثلاثة أصدرها (2003، 2005، 2008) ضمّت كثيراً مما كتب، بدا الراحل وفيّاً لخياراته الوطنيّة والمبدئيّة، في الموضوعة الفلسطينية، وصاحب أفق ديمقراطي مناهض للتسويات الناقصة. وواظب، في الأثناء، على سمته المنفتح الذي شحنتهُ به خبرته الصحافية الطويلة، وهو الذي كان على صلاتٍ طيبةٍ مع حكومات عربية، ومع قياداتٍ فلسطينيةٍ وازنة، من دون أن يأخذه أمرُه هذا إلى مباركة العوج عندما يلحظه، ومن دون أن يتخندقَ في معارضات جذرية، فقد آثر صفتَه ناقداً، لا مُخاصما، من دون تنازلٍ منه عن ثوابت معلومة. وبهذا، يمنحنا أستاذُنا عظة مهمة، مفادها أنك، في أدائك الصحافة، تستطيع أن تستثمر المساحات المتاحة أمامك، من دون أن تتخلّى عن مواقفك وخياراتك. وفي ظنّي أن ولاءاتِ (ومصادر تمويلها) المنابر التي كتب فيها بلال الحسن، في سنوات ما قبل مرضه الذي أقعده طويلا، ربما قيّدت مشاغله، ولم تسعفه بما يكفي لقول ما يريد قولَه في غير شأن عربي.

رحم الله بلال الحسن، كان علماً رفيع المكانة في مسار صحافة عربية عريضة، لن يُنسى اسمُه معلماً وقلماً، وصاحب تجربةٍ في قيادة منابر كان لها حضورها وفاعليّتها.

بانتظار الرد وترقب تداعياته

حسام كنفاني

تسود حالة من الترقب في الشرق الأوسط بانتظار تنفيذ تهديد إيران وحزب الله بالرد على اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إسماعيل هنية، في طهران، والقيادي في حزب الله، فؤاد شكر، في قصف الضاحية الجنوبية لبيروت. كثير من التكهنات تدور حالياً حول طبيعة هذا الرد وما إذا كان سيؤدي إلى توسع الحرب في المنطقة، سواء نحو لبنان أو بشكل مباشر مع إيران. وكثير من التحليلات أيضاً تتحدث عن إمكان احتواء تداعيات الضربات المرتقبة عبر مسارات دبلوماسية ومقترحات سياسية، خصوصاً في ظل القناعة أن معظم الأطراف، طبعاً باستثناء رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو، غير راغبين في حرب شاملة لا يمكن التنبؤ إلى أين ستؤدي. غير أنه لا يمكن الركون إلى أي من التحليلات والتوقعات قبل حصول الرد وتقدير طبيعته وكيفية تعامل دولة الاحتلال معه. لا مجال للشك هذه المرة أن الضربات المتوقعة من إيران وحزب الله لن تكون شكلية، بحسب ما أكد الأمين العام للحزب، حسن نصرالله، في خطابه الأخير، والذي يؤشر بشكل غير مباشر إلى أن سرب الصواريخ والمسيرات الذي أطلقته إيران في ردها على قصف قنصليتها في دمشق كان منسقاً ومقصوداً أن يكون بالشكل الذي ظهر فيه. هذا الأمر لن يتكرر في الرد الحالي، وبالتالي فالمتوقع إصابة أهداف إسرائيلية بشكل مباشر، سواء من إيران وحزب الله.

ولا شك أن طبيعة هذه الأهداف الإسرائيلية ومكانها سيكونان عاملين حاسمين في تحديد كيفية رد الاحتلال ومكانه. الحديث اليوم عن ثلاثة سيناريوهات أساسية للضربة المرتقبة، ولكل منها مسار مختلف في تحديد التعاطي الإسرائيلي معه. السيناريو الأول قائم على استهداف قواعد عسكرية في عمق دولة الاحتلال، وأن هذا الرد عملياً لا يتخطى قواعد الاشتباك المعمول بها منذ بداية العدوان على قطاع غزة، إلا أن حصيلته ستكون أساسية في تحديد طريقة التعامل معه، خصوصاً إذا أدى مثل هذا الاستهداف إلى سقوط عدد كبير من العسكريين الإسرائيليين. السيناريو الثاني هو تنفيذ عملية ضد أهداف إسرائيلية في الخارج، وهو ما سبق أن حصل في أكثر من مناسبة ولم يؤد إلى تصعيد كبير في ذلك الحين. لكن أيضاً طبيعة رد الفعل الإسرائيلي ستتوقف على رمزية المكان المستهدف والنتائج التي ستتأتى عن الضربة. السيناريو الثالث يتمحور حول استهداف منشآت حيوية في داخل إسرائيل، على غرار شركات الغاز والماء والكهرباء أو المرافئ، خصوصاً أن حزب الله سبق أن نشر فيديوهات لهذه المواقع التقطتها طائرات مسيّرة أرسلها إلى الداخل الإسرائيلي. ويبدو أن دولة الاحتلال تقدم هذا السيناريو على غيره، وبالفعل طلبت من الإسرائيليين الاستعداد لمواجهة العتمة أو نقص المياه. عمق هذا الاستهداف جغرافياً سيؤدي دوراً أساسياً في تحديد التعامل الإسرائيلي، فالضرب في حيفا أو تل أبيب سيكون له رد مختلف عن القصف في نتانيا أو عكا أو أي من المنشآت في الشمال.

مقابل هذه الفرضيات تأتي تحليلات المبادرات السياسية، والتي لا يتوقع أحد لها النجاح، لا سيما أن الكثير من الدبلوماسيين الغربيين أبدوا تشاؤماً تجاه إمكان تجنب رد إيران وحزب الله، اللذين يبدون مصرين على معاقبة إسرائيل لضربها طهران والضاحية الجنوبية لبيروت. إضافة إلى ذلك، فحتى لو أن إيران تراجعت عن تنفيذ تهديداتها مقابل تسوية ما، فإن تجارب الأشهر السابقة أظهرت العجز الغربي عموماً، والأميركي خصوصاً، في الضغط على نتنياهو لوقف العدوان على قطاع غزة أو القبول حتى بتهدئة طويلة المدى، والأمر سيكون أكثر تعقيداً في دفعه لقبول تسوية تشمل إيران وحزب الله.

من الواضح أن حبس الأنفاس سيستمر لأيام، أو ربما ساعات، قبل أن ترسو المنطقة على الواقع الجديد الذي سينجم عن الردود المرتقبة، والتداعيات التي ستؤدي إليها.

بين يدَي الاستشراق... الشرق الأوسط مشروع لا مفهوم

سيف الدين عبد الفتاح

الحديث عن الشرق الأوسط يجب ألّا يكون في إطار التوقّف عنده «مفهوماً»، ليتخطّى الاهتمام إلى كونه «مشروعاً» استهدف المنطقة كما حدّدها الغرب، وهو أثّر في الاهتمام الاستشراقي، وفي المشروع النهضوي عربياً كان أو إسلامياً. في هذا المقام، يجب أن نتذكّر ونبحث في الذاكرة التاريخية لمفهوم «الشرق الأوسط الكبير»، فعقب الحرب العالمية الثانية، وبروز صيحات الاستقلال هنا وهناك، حاولت السياسة الاستعمارية البريطانية التحايل على ذلك بأنْ قدّمت مشروعاً تشترك فيه مصر والأقطار العربية المستقلّة في ذلك الوقت، وضمّ بعض الأقطار الإسلامية المجاورة، مثل تركيا وإيران وباكستان، وكان يربطها جميعاً مع بريطانيا وأميركا في تكتّل سياسي وعسكري بحُجَّة الدفاع عن الشرق الأوسط، ضمن مشروع سمَّته في ذلك الوقت «الدفاع عن الشرق الأوسط». واعتبره المصريون آنذاك وسيلةً لتبرير بقاء الجيوش الأجنبية والنفوذ العسكري والسياسي البريطاني في مصر، ولذلك عارضوه بشدّةٍ وبإجماعٍ لا نظير لهما، وخرجت مظاهراتٌ شعبيةٌ وطلابيةٌ حاشدةٌ تهتف ضدّه، وأدّى ذلك إلى رفضه نهائياً.

برزت المشروعات التي تحمل شعار «الشرق الأوسط» تاريخياً لتُعبِّر عن هدف السيطرة على المنطقة بأشكال وأساليبَ تختلف حسب الزمان والمقام، وهي وسيلةٌ تُشكّل حلقةً متصلةً (سواءُ أكان هذا «الشرق الأوسط» «جديداً» أم «كبيراً»)، لتحويل أنظار الشعوب (إسلامية أو عربية)، عن هدفها الاستراتيجي، الذي أجمعت عليه «الأمّة» منذ سقوط الخلافة العثمانية، والذي يهدف إلى إعادة بناء المنطقة العربية والإسلامية، وإعادة توحيدها في صورة عصرية من خلال بناء تكتّل إقليمي يضمّ دول العالم الإسلامي العربية وغير العربية، وهو أمر يُحيلنا إلى قواعد النظر السليم لمشروعات الشرق الأوسط؛ هذا النظر الذي لا يكفي فيه مُجرَّد رفض تلك المشروعات التي تحمل شعار «الشرق الأوسط»، بل لا بدّ من أن تضع القوى الفاعلة سياقات عملية لبناء تكتّل عربي إسلامي إقليمي عصري مُستقلّ عن نفوذ الإمبراطوريات الأجنبية، التي تريد استغلالها والسيطرة عليها. ومشروعات شعار الشرق الأوسط ليست إلّا تحايلاً أجنبياً يرادُ به تجاهلَ وحدة الأمّة العربية الإسلامية صاحبة هذا الإقليم، بل وتجاهل وجودها وحقوقها، وإعطاء منطقتنا اسماً جديداً يفتح الباب لسيطرة قوى أجنبية، تهدف من وراء مشروعاتها ومبادراتها إلى تحقيق مصالحها، التي ترى في الهيمنة والسيطرة عليها الطريق المؤكَّدة لتحقيق ذلك، بالنظر إلى هذه المنطقة عُقدةً استراتيجيةً. فهل يمكننا أن نتدبَّر تلك المعاني حينما يَردُ إلينا شعارٌ تارَّةً يوصف بشرق أوسط «جديد»، وتارَّةً بـ«الكبير»؟

> «الشرق الأوسط» تعبيراً جغرافياً أحد أهمّ مقاصده زرع إسرائيل في الكيان العربي، وقبولها ضمن مشروع سمِّيَ «السوق الشرق الأوسطية»

> مبادرات «الشرق الأوسط» تضمر أهدافها خلف شعارات جذّابة مثل «المهمّة الحضارية» أو «الحرّية» أو «الديمقراطية» أو «التنمية»

«الشرق الأوسط» إقليم واسع في تصورات أصحاب المصلحة، وله قضية تُذكِّرنا بما عُرف بـ«المسألة الشرقية» في القرن الـ19. والذين عاصروا لغة السياسة والصحافة قبل الحرب العالمية الثانية يذكرون أنّ هذه التسمية لم تكن شائعة كما هي الآن، ولم تكن تعني ما تعنيه الآن، ويلاحظون أنّها بدأت تُروَّج في الخمسينيّات والستينيّات في فترة الحرب الباردة، حتّى أنّها أخذت معنى أوسع ممّا كان لها من قبل، ومن حقّهم أن يسألوا أنفسهم عن العوامل التي فرضت هذا المصطلح على لغة الصحافة والإعلام والسياسة، ومن حقّهم كذلك أن يبحثوا عن الأسباب التي دفعت بعض القوى لترويجه، والأهداف التي ترمي إليها من وراء ذلك. كان «الشرق الأوسط» قبل الحرب العالمية الأولى منطقةً تفصل بين «الشرق الأدنى» و«الشرق الأقصى»، ولكنّه اليوم في لغة الصحافة والسياسة الغربية قد اتّسع نطاقه ليشمل في نظرهم ما كان يُسمَّى من قبل بـ«الشرق الأدنى» إلى جانب ما كان يُسمى بالشرق الأوسط قبل ذلك؛ «Great Middle East». كان إقليم «الشرق الأوسط» في قاموس «الجغرافية الإقليمية»، قبل الحرب العالمية الثانية، يختلف عن «الشرق الأدنى»؛ إذ كان يُقصد به الإقليم الذي يتوسّط بين الشرقَين الأدنى والأقصى ويفصل بينهما، كان «الشرق الأدنى» يشمل تركيا والبلاد العربية الخاضعة لها، ولا يمكن فهم هذا التوسّع في مفهوم «الشرق الأوسط» إلّا بدراسة العوامل الفكرية والسياسية التي تُؤثّر في رسم خريطة العالم وتحديد مناطقه، وهذه العوامل لا تقتصر على الاعتبارات الإقليمية والجغرافية.

إذا كان «الشرق الأوسط» تعبيراً جغرافياً فإنّ أحدَ أهمّ مقاصده الزائدة على مُجرَّد الوصف تمثّل في «زرع إسرائيل في الكيان العربي»، بل وإيجاد قاعدة شرعية وحجية، ليس لاستزراعها فقط، بل وقبولها ضمن مشروع سمِّيَ «السوق الشرق الأوسطية»، وضمن حركة تطبيع وتطويع كُبرى، وصار «الشرق الأوسط» مزروعةً فيه إسرائيل شعاراً دالّاً ومُؤشّراً إلى استراتيجية بعيدة المدى. ولا يكتفي دعاة «مشروعات الشرق الأوسط» بفرض التعاون مع إسرائيل اقتصادياً، بل يريدون أن تكون لها الأولوية على علاقات التعاون بين الدول العربية والإسلامية، بل وسيلة لمنع هذا التعاون... شاهدُنا في ذلك اتفاقاتٌ مفروضةٌ ومشروطةٌ، يتوارى فيها استخدام مفاهيم «العالم العربي» و«العالم الإسلامي»، فضلاً عن المفاهيم التي تتمحور حول «الأمّة»، لمصلحة كلّ تعبير يحمل مدلول «الشرق الأوسط». إنّ شعار «الشرق الأوسط» في المدى الطويل سوف يتناقض مع وجود الجامعة العربية، ومنظّمة المُؤتمَر الإسلامي، أو أيّ تكوين جماعي يشير إلى معنى التوحّد والجامعية. لقد بدا هذا المفهوم ضمن عمليات إحلال، في الوجهة والهدف والمقصد. وحينما يبرز مفهوم «الشرق الأوسط الكبير»، وما يحمله من تضمينات، فإنّنا أمام منطقة أكثر اتّساعاً؛ على مقاس المصالح الأميركية، التي اتّسع مجالها الحيوي بحدوده كلّها للتعامل مع عالم المسلمين والعالم الإسلامي، فصار «الشرق الأوسط الكبير» ليس إلّا العالم الإسلامي أو يكاد؛ سيكون هذا المفهوم الجديد هو البديل لمفهوم الأمّة.

وفي ضوء الأوصاف التي تبدّلت من «جديد» إلى «كبير» إلى «موسّع»، ذلك كلّه إشارة إلى المقاس الكوني لهذا المفهوم في تصورات الغرب واستراتيجياته تجاه المنطقة. وهكذا، فإنّ مصطلح «الشرق الأوسط» يُعتبَر من المصطلحات الغامضة، التي لا تشير إلى جغرافية ذات حدود ثابتة، على الرغم من وجود العديد من العناصر المشتركة التي تميّز قطاعاتٍ في هذه المنطقة عن غيرها، مثل اللغة، والدين، والثقافة، والتاريخ، والأصل العرقي. ويرجع هذا الغموض إلى العوامل السياسية التي صاغت المصطلح كي تعطيه شكلاً مَرناً يمكن إعادة تشكيله طبقاً لاستراتيجيات الدول الغربية، ونطاقات نفوذها، وبرنامج مصالحها. وخلال الثمانية عقود الماضية أُعيد بالفعل رسم المنطقة مرّات عدّة من خلال المعاهدات أو الأحلاف أو المبادرات، التي سعت إلى تكريس هيمنة الإمبراطوريات الغربية. وفي معظم الأحوال جرّت محاولات تمرير تلك المبادرات تحت غطاء من الشعارات والأهداف النبيلة، مثل دفع الخطر عن شعوب المنطقة، ومساعدتها بدعوى تحديثها وتنميتها، والوقوف إلى جانبها لتقرير مصيرها وإقامة حياة ديمقراطية.

ومبادرةُ «الشرق الأوسط الكبير» هي استمرارٌ لتلك السلسلةِ من المبادرات التي تتم جميعها تحت مزاعم إنسانية لا تختلف كثيراً عن سابقاتها من حيث السياق والأهداف والأسلوب. قد تكون هناك بعض الاختلافات في التفاصيل، بطبيعة الحال (نظراً إلى تغيّر الأحداث) إلّا أنّه تظلّ هناك العديد من القواسم المشتركة:

الأول، أنّ مثل هذه المبادرات تصاحب في العادة أحداثاً وتحوّلاتٍ كبرى في المنطقة مثل الحروب المباشرة أو غير المباشرة، أو السعي لاحتواء خطر يهدّد مصالح الدول العظمى، أو إعداد هجمة استباقية لتكريس النفوذ الاستعماري والهيمنة على دول المنطقة. الثاني، أنّ الأهداف المُعلَنة لتلك المبادرات لا تعكس في أغلب الأحيان الأهداف المضمرة من ورائها. فأغلبها يتمّ خلف شعارات جذّابة مثل «المهمة الحضارية» أو «الحرّية» أو «الديمقراطية» أو «التنمية» و«التجارة الحرة» و«الارتقاء بكرامة الإنسان».

الثالث، أنّ هذه المبادرات لا تتمّ من دون المساعدة من قوى إقليمية داخلية؛ إمّا من طريق التواطؤ المباشر (باب عالٍ أو شريف من ورائه لورانس، أو ملك، أو رئيس، أو قوى «تحالف ديمقراطية»)، أو بسبب عجز واضح ليس له مسوّغ إلا غياب الإرادة وعدم الرغبة في التصدّي لإفشال تلك المبادرات بالوسائل كافّة.

إنها قصة «الشرق الأوسط» و«مشروع النهوض» و«الظاهرة الاستشراقية»...

(كاتب مصري في إسطنبول)

الداعية محمود الحوت وإشكالية السلطة والشعب

يمان دابقي

أعاد نبأ وفاة الداعية السوري، الشيخ محمود الحوت، في مكان إقامته بمصر الثلاثاء الماضي، إلى أذهان السوريين، وخاصّة أبناء مدينة حلب، مواقفه وتأثيره في مريديه من الثوار السوريين لحظة انطلاقها في 2011، وما نجم عنها من جدل وغموض بشأن فتاويه التي شكّلت حالةَ انقسام في الوسط الحلبي، لا سيّما الشهيرة منها بعدم جواز الخروج على الحاكم بحُجَّة سفك الدماء والفوضى. هذا الموقف الذي جعله أقرب إلى النظام السوري، كان بمثابة زلزال لأوساط حلبية شعرت بخذلانٍ من شخصيةٍ دينيَّةٍ أثّرت ثلاثة عقود في المدينة، وخرَّجت مشايخَ وفقهاءَ في مدرسة دار النهضة الشرعية، التي أدارها الحوت في 1983 خلفاً لشيخه المُؤسّس محمد النبهان في العام 1964.

لمَع اسم الحوت داخل مدينة حلب قبل 30 عاماً معتنقاً التيّار الصوفي الغالب على سكّان حلب، وكان له تأثير كبير، امتلك مُقوّمات جذب وإقناع عبر فنون الخطابة، وكان قريباً من طبقة التجّار والصناعيين وأثرياء المدينة الذين لم يتوانوا عن تقديم الدعم المادّي للمدرسة، نوعاً من تحالفات الطبقات البرجوازية والدينية التي أسّس لها نظام الأسد (الأب)، واستمر على نهجه بشّار (الابن الوريث). المدرسة «الكلتاوية» كانت تُخرّج سنوياً عشرات الأئمّة وخطباء مساجد، يُعيَّنون فوراً في مساجد المدينة وأريافها تعييناً مُنعزلاً عن المدارس الشرعية التابعة لوزارة الأوقاف لدى نظام الأسد، وهؤلاء كانوا يصولون ويجولون بمهمّات «الدعوة الصوفية» في مختلف المحافظات السورية وأريافها، ناهيك عن المريدين الشرعيين، الذين تخرَّجوا في الأزهر الشريف في مصر.

كان المذهب الصوفي عاملَ جذب مناسب لشرائحَ شبابيةٍ حلبيةٍ باحثةٍ عن منهج ومُعتقد يتناسبان مع بيئاتها المحافظة، وهو الأمر الذي قاد إلى إقبال آلافٍ على خُطَب الجمعة، ودرس يوم الاثنين، في مقرّ الدار بحي باب الحديد في حلب القديمة. كانت الحشود تتوافد إلى المسجد قبل ساعتين في الأقلّ، لشدَّة الزحام في يوم الجمعة، للصلاة هناك، والاستماع للخُطَب الرنَّانة من الشيخ الحوت. كان كاتب هذه السطور، ابن تلك المدينة، عندما يصل إلى عتبة الباب الحديدي (المدخل الرئيس للحي) ينظر أعلاه متأمّلاً عظمةَ وتراث هذا الحي، الأزقَّة والحجارة ومحالَّ النحّاسين وغيرها من الحرف اليدوية الأثرية، فيشعر بالانتماء للمكان. كانت مشاعر الورع تختلج نفوس أبناء الحي، وهم يسيرون وسط الجموع إلى مكان المسجد، ما زاد من خبطة تلك المشاعر علوُّ صوت الشيخ عبر مُكبِّرات الصوت بين الأزقة من أشرطة مُسجَّلة لدروسه، عن الجنة والنار، وعن عذاب القبر، وعن كثير في دروس تأخذك إلى عوالم أخرى بتجييش العاطفة وتغييب العقول. عند هذه اللحظة، تنتابك مشاعر مختلطة، وتنسى برهةً ما هو خارج أسوار المكان، وكأنّ حياتك توقّفت، تنتظر الولوج إلى عالم آخر، وتنتظر أمراً من الشيخ الحوت فقط، الذي جهَّز مريدوه المشهد بكلّ عناية تمهيداً لدخوله بين الجموع، ليتهافتوا عليه يسرة ويمنة مقبّلين يديه أو كتفيه، وهو في طريقه إلى منبر الخَطابة، ملعبه الأمّ، وأداته الطيّعة، لتجييش النفوس بكلمات تثقب القلوب وتحاصرها.

> كانت المدرسة «الكلتاوية» تُخرّج سنوياً عشرات الأئمَّة يُعيَّنون في المساجد تعييناً مُنعزلاً عن المدارس الشرعية التابعة لوزارة أوقاف نظام الأسد

> مات الشيخ محمود الحوت وهو على مواقفه وما آمن به، وخذل الشعب السوري، وغرّر وطعن بثورتهم

لا يُخفي الكاتب أنّه كان يتأثر من هول المشهد بعد سماعه أنين وبكاء المصلّين، ورؤية دموعهم، أمّا الأنظار فتراها شاخصةً متوجّهةً نحو منبر الشيخ، وكأنّ مغناطيساً جذبها في اتّجاه واحد. ساعةً إلّا عشر دقائق، وأحياناً تزيد، يستمرّ الشيخ بإطلاق كلماته مُستخدماً فنونه في الخَطابة، وتوزيعه للنظرات بلغة جسد مدروسة، وبقدرة هائلة في التحكّم بصوته، فتراه ينخفض ويعلو فجأة، لترتفع معه صيحات «الله أكبر». عند هذا المقام تنتابك مشاعر الخوف بخلاف الاعتقاد السائد، إذ كان من المفترض أن يشعر بعضهم براحةٍ كما كان يدّعي مريدوه، الذين رتَّبوا الصفوف عقب انتهاء الصلاة لتوديع الشيخ بالتقبيل والتمسيح، حتّى خروجه من المسجد.

حينما قامت الثورة في 2011، كان أبناء حلب، خصوصاً من مريدي الحوت، يعتقدون أنّ الثورة ستظهر من هناك لحظة تَفوّه الحوت بكلمة واحدة، التي من الممكن لو كانت في صالح الثورة أن تكون كفيلةً بأن تغدو حلب مع أختها درعا جنباً إلى جنب. انتظر أتباع الشيخ وغالبية الطبقة الوسطى المحافظة ظهور الحوت، بعدما سلّموا له تسليماً طوال ثلاثين عاماً من الطاعة والتقديس، لكنّ الطامَّة جاءت بخذلان غير مسبوق، حينما قال إنّ «جور السلطان 50 سنة أفضل من جور الهرج شهراً واحداً»، مُتَّهماً المتظاهرين بعدم معرفتهم الصلاة والعبادات. ولكي يبعد المخاوف والشكوك، ويسقط التكليف الشرعي عن مريديه، ومشايخ الدار، اجتمع معهم قبل خروجه إلى مصر عام 2012، وقال لهم إنّه اجتمع مع بشّار الأسد ونصحه بإيجاد حلٍّ مع المتظاهرين، وحذّرهم في الوقت نفسه من الانجرار خلف الإعلام المُعارِض، وأوصاهم بالتزام منازلهم والسكوت.

قاد موقف الحوت إلى شقّ الصف داخل مدينة حلب، وبين مريديه، وفي مشيخة الطريقة الصوفية، فمنهم من التحق بركب الثورة وذهب إلى مناطق المُعارضة في حلب الشرقية، التي دمَّرها النظام، وآخرون مكثوا في مناطق النظام، والتزموا تعاليم الشيخ، وطرفٌ ثالث من متصوفة اختاروا مغادرة سورية، ورأوا في تركيا ومدينة قونيا مكاناً مناسباً، مع بقية المريدين والأتباع من مشايخ وطلبة أتراك.

في 2012 ترك الحوت البلاد متوجّهاً إلى السعودية، واستقر بعدها في مدينة دمياط المصرية، تاركاً خلفه موجةً من الشكوك والانقسامات، لا تزال مستمرّةً بين المريدين، وبين الأتباع، وبين شرائح حلبية محافظة. لا أحد يعلم سبب المغادرة غير أنّه شاع بين مريديه أنّ الحوت اضطر لذلك بسبب ضغوط تعرّض لها من النظام لإجباره على اتخاذه موقف أكثر جدّيةً إلى جانبه، مُدَّعين أنّ الحوت لم يتّخذ موقفاً صريحاً في مصلحة النظام، بل دعا إلى الإصلاح السياسي والدستوري في إحدى خطبه مطلع العام 2012. لكنّ هذه المسوّغات سقطت مع عودة الحوت إلى سورية عام 2019، من طريق وساطة إيرانية توسّط فيها الشيخ أحمد حسّون، بحكم وجود علاقة مصاهرة بين الرجلين. آنذاك، رمّمت دار النهضة بعد سنوات طويلة من المعارك العسكرية، وأعيد فتح المدرسة من جديد، مع عودة الدعم المالي من التجّار والصناعيين. آنذاك، راج حديث عن أنّ الحوت طلب من الطرف الإيراني (عبر حسّون) السماح له بزيارة سورية، وعدم التعرّض له أمنياً أو اعتقاله.

أسقط هذا المنعطف آخر أوراق التوت عن الرجل بالنسبة إلى جمهور المعارضة، والثوار والحلبيين، متحفّظين وعاتبين على مواقف الشيخ السالبة ضدّ ثورتهم، بعد وضوح انحيازه التامّ للنظام السوري، ودخوله المحورين الإيراني والتركي، سيّما بعد ظهوره في مدينة قونيا التركية قبل سنوات، في مشهد شبيه نوعاً ما بما جرى مع الشيخ محمد رمضان البوطي، ومواقفه من الثورة السورية، ليتبع الركب والتصنيف الرسمي مع من بات يطلق عليهم «مشايخ السلطان».

واقع الأمر، أسقطت الثورة الغباشة عن أبناء مدينة حلب، وهذه التجربة كان فيها عظةٌ ودروسٌ لأجيالنا وأطفالنا، لكنّ هذا لا يعني تعميم ما جرى مع الحوت، ورفض المشايخ وأهل العلم كلّهم. لا يصحّ التعميم، لكن العبرة في الوعي والعقل والتدبير والبحث، والانتقال من الشك إلى اليقين، في مسيرة المعرفة، والنظر إلى كلّ حالة في سياقيها المكاني والزماني. ربّما كان همّ الشيخ محمود الحوت الحفاظ على قلعته في باب الحديد (دار النهضة الشرعية)، وهي قلعة شيخه محمد النبهان، وتوريثها للمريدين، ومنع خرابها ودمارها، فباعتقاده أنّ العامل والموروث الديني أهم من مسببات الواقع والثورة، التي ستنتهي وستزول يوماً ما، وهذا يستدعي الاهتمام بما هو أكثر أهمّية، وسائد إلى تاريخ قيام الساعة، وفق معتقداته، وربّما لأجلِ ذلك حابى الشيخ نظام الأسد في عهدَي الأب والابن، وانحاز للأخير لحظة انطلاق الثورة، وغادر البلاد بعد رفضه الخروج عن الحاكم، ثم عاد بزيارة ووساطة إيرانية، وفي آخر أيّام حياته تنقّل بين مصر والعراق، وكان يدعو من هناك إلى محبَّة آل البيت في النجف الأشرف (هل تشيّع أم لا؟).

مات الشيخ محمود الحوت وهو على مواقفه وما آمن به، وخذل الشعب السوري، وغرّر وطعن بثورتهم، مات وهو موسوم بوقوفه مع النظام والمحور الإيراني.

(صحافي سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد
(Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **معن البياري** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■
المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■
الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■
منوعات **لياك حداد** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة
نبيل التليلي ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611442047 - 009611567794
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: +97440190635 جوال: +97450059977
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads